الخطابُ الدينـــيّ ودوره فـــي الدّفـــع بالمقاومـــــة ضـــدّ الاستعمار الإيطالـــيّ فـــي فـــزان

أ.ضو مسْـــعود طالب شبل ـ كلية التربية تيجي ـ جامعة الزنتان.
doowssabil@gmail.com

Religious discourse and its role in promoting resistance Against Italian colonialism in Fezzan

Summary
The Fezzan region is considered a historical region, with a glorious past, and a history full of Islamic conquests and jihad against invaders, ancient and modern. It is one of the regions of Libya, and includes many cities and villages. Its people are predominantly Bedouin, and it is inhabited by separate tribes from the people of this country, which had the largest share of Resistance and jihad against French colonialism and colonialism Italian religious discourse played a prominent role in revitalizing the resistance movement against the colonialists, by motivating the mujahideen in mosques, scientific corners, and other vital centers. In this research, we talked about the Fezzan region and the most important and most prominent corners in it, which had a special character. In the jihad movement, there was also talk about a role Religious discourse in pushing resistance, mentioning examples from reality during the presence of the Italian occupation in the region. Among the results of this research was that the zawiyas played a major role in stabilizing the mujahideen and raising their resolve to confront the oppressive enemy, by encouraging them to receive the great reward from God, which is what It increased their strength and enthusiasm for jihad.
Keywords: jihad, discourse, religious, corners, fezzan, mosques.

الملخّـــص:

تُعدّ منطقة فزّان منطقةً تاريخيةً، لها ماضٍ مجيدٌ، وتاريخٌ حافلٌ بالفتوحات الإسلامية والجهاد ضدّ الغزاة قديما وحديثا، وهي إقليمٌ من أقاليم ليبيا، تضمّ العديد من المُدن والقرى، يغلبُ على أهلها البداوة، ويقطنُها قبائلُ متفرّقةٌ من أبناء هذا الوطن، كان لها النصيبُ الأوفرُ من المقاومة والجهاد ضدّ الاستعمار الفرنسي، والاستعمار الإيطالي، ولقد لعب الخطابُ الديني فيها دورًا بارزًا في تنشيط حركة المقاومة ضد

المستعمر، وذلك من خلال تحفيز المجاهدين في المساجد والزوايا العلمية، وغيرها من المراكز الحيوية، وفي هذا البحث تم الحديثُ عن منطقة فزّان وعن أهم أبرز الزوايا فيها، التي كان لها طابعٌ خاصٌّ في حركة الجهاد، كما تم الحديث عن دور الخطاب الديني في دفع المقاومة، مع ذكر نماذج من الواقع في خلال وجود الاحتلال الإيطالي في المنطقة، وكان من بين نتائج هذا البحث أن للزوايا دورًا كبيرًا في تثبيت المجاهدين ورفع هممهم، للتصدِّي للعدوّ الغاشم، وذلك بترغيبهم فيما عند الله من الثواب العظيم، الأمر الذي زاد من قُوّتهم وحماسهم للجهاد.

الكلمات المفتاحيـــــة: الجهاد، الخطاب، الدِّيني، الزوايا، فزّان، المساجد

المقدّمـــــــــة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاةُ والسّلامُ على خاتم الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدِّين.

أما بعد:

فلا شكّ أن الخَطابَ الدِّيني له تأثيرٌ في النُّفوس، ووقعٌ في القُلوب، وذلك بما يَبُثُّه في نُفوس المُجاهدين من رُوح المقاومة والصّبر عليها، وتثبيت الأقدام وعدم التولّي والضّعف أمامَ العدوّ، فهو بمثابة الدّافع الذي يدفع بالجيوش الإسلامية نحو التضحية والفداء، إعلاءً لكلمة الله- جل وعلا- وتحقيق الحقّ، ودفاعًا عن الأوطان والأعراض من كيد الكائدين، وظُلم المُعتدين.

ولقد حقّق الخطابُ الدِّيني أهدافًا كبيرةً في دفع المقاومة للغزو الإيطالي على ليبيا في ربوع الوطن عامّة، وفي منطقة فزّان خاصّة، وذلك من خلال توجيه حركة المقاومة عبر الزوايا والمساجد والمراكز الدينية، حيث كانت تُدار حِلَقُ العلم في تلك المؤسسات الدينية من تعليم للقرآن والفقه، ومن إرشاد المُجاهدين وتزويدهم بالعِدّة والعتاد من أجل التصدّي للعدوّ الغاشم، فكان للخطاب الدّيني الدورُ البارزُ في ظفر الليبيين في كثير من المعارك وانتصارهم على عدوّهم.

ومن المعلوم أن بثَّ رُوحِ الشجاعة والصبر أمام مواجهة الأعداء هو من أسس الجهاد في دين الإسلام، ولذلك وجّه المولى- جلّ وعلا- نبيّهُ- صلّى اللهُ عليه وسلّم- إلى تحريض المسلمين على القتال، فقال- سبحانه وتعالى -: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيءُ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَّكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَّكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ**﴾، (الأنفال، 65).

فكان للخطاب الدِّيني الأثرُ الواضحُ في نفوس المجاهدين من أبناء هذا الوطن، وذلك بما غــرسه في أوساطهم من الشجاعة واليقين والثبات على الحقّ، فأبلَوا بلاء حسنا في دفع الغُزاة، وقمعِ المعتدين، ولم يستسلموا للعدوّ الغاشم، بل كانوا خيرَ مثال للتضحية والفداء.

مُشكلةُ الدراسة وتساؤلاتها :

تتمحورُ مُشكلة الدراسة حول طرح بعض الأسئلة التي تُفيد وتُبيّن مفهوم الخطاب الدِّيني ودوره في تعزيز حركة الجهاد والمقاومة ضدّ الغزاة الطليان، وهذه المُشكلةُ تحاول الإجابة عن بعض التساؤلات التالية:

1. ما تعريف الخطاب الديني الجهادي؟ وما أهميته؟ وما هي أسسه؟
2. ما أثر الخطاب الديني في دفع حركة المقاومة في فزان؟
3. ما العوامل التي ساعدت الخطاب الديني في توجيه المجتمع للمقاومة في فزان؟

أهداف الدراســـة:

تهدفُ هذه الدراسةُ إلى بعض النقاط الآتية:

1. تعريفُ الباحث بتاريخ ناحية من نواحي ليبيا وماضي الأجداد الجهادي ضدّ المستعمر الغاشم، وتوجيه أبناء الوطن إلى حذو خُطى الأجداد في الدِّفاع عن الدِّين والوطن.
2. بيان علاقة المساجد والزوايا الدِّينية بالعملية الجهادية في منطقة فزّن إبّان الغزو الإيطالي على ليبيا.
3. تزويد المكتبة العلمية بالبحوث التي تُسهم في التعريف بالآثار الدينية والمعالم القديمة التي كان لها دورٌ في تعزيز حركة المقاومة في منطقة فزّان.
4. إبراز دور الخطاب الديني في الدفع بالمقاومة ضد الاستعمار الإيطالي.
5. نماذج من الخطاب الديني الحماسي وأثره على المقاومة في فزان.

أهمية الدراسة:

تكمنُ أهميةُ هذا البحث في إثراء المكتبة الليبية وإبراز حركة المقاومة في فزان ضدّ الاستعمار الإيطالي وما يمثله الخطاب الديني من دور فاعل وأساسي في مجتمع محافظ يدين بالولاء لله ثم للوطن، وبيان الدور التحريضي على الجهاد للخطباء في الزوايا والمساجد.

منهجية الدراسة:

لدراسة هذا الموضوع تم الاعتمادُ على المنهج التحليلي القائم على المنهج الاستقرائي عند نقل المعلومة وإسنادها إلى المصدر والمرجع.

أسباب اختيار موضوع البحث.

مما دفعني إلى اختيار هذا الموضوع، أهمية الخطاب الديني، وتناوله بالبحث والكتابة لما له دور رئيسي في الدفع بحركة الجهاد في ليبيا ضد الاستعمار لا سيما في فزان والتي شكلت الزوايا والكتاتيب الدور الرئيسي في الدفع بحركة المقاومة في فزان.

-الدراسات السابقة: أما عن الدراسات السّابقة، فإننا لم نقف على دراسة تناولت الخطاب الدِّيني ودوره في الدّفع بالمقاومة ضد الاستعمار الإيطالي في فزّان، ولكن هناك بعضُ الكتابات التي تتحدّث عن دور الخطاب الدِّيني في حركة الجهاد، وهذه الكتابات مندرجة تحت مباحث في كتب مختلفة، علاوة على وجود بعض الدراسات التي تتحدث عن تاريخ الجهاد الليبي، وحركة الجهاد، سنستعين بها في هذا البحث.

حدود الدراسة :

1. تعريف الخطاب الديني وأسسه.
2. فترة الاحتلال الإيطالي لليبيا(فزان).
3. المقاومة ضد الاستعمار الإيطالي في فزان.

تقسيم الدراسة:

المبحث التمهيدي، وفيه: التعريف بمنطقة فزان ، والمبحث الأول، وفيه: الحياة الدينية في فزان، الزوايا والمساجد، والمبحث الثاني، الخطاب الديني، تعريفه، ودوره في توجيه المجاهدين ، والمبحث الثالث، فاعلية الخطاب الديني، وفيه: نماذج من الواقع في فزان في فترة الاحتلال الإيطالي ، ثم الخاتمة وفيه بعض النتائج والتوصيات.

تمهيد ـ منطقة فزّان:

تمتدّ فزّان إلى جنوب حمادة الحمراء وجبل السوداء، وهي منطقة شاسعة، تتبعُ من الناحية الجغرافية الصحراء الكبرى، وهي منطقة متوسطة بين المناطق شبه الصحراوية القائمة بين الهضبة الرئيسية وبين الصحراء الرئيسية، حدودها الشمالية واضحة تتمثل في الحمادة الحمراء وجبل السوداء، وحدودها الشرقية والغربية أقل وضوحا؛ إذ أن أولاهما تخترق (أيدين) ثم تتصاعد حتى إلى أن تصل إلى وادي

(طاطرت) وتقطع هضبة (تكاهات) وتنحني إلى الجهة الجنوبية الشرقية حتى وادي (وراريت) وتشمل رؤوس الوديان التي تمتد إلى غات ووادي (ايسين)، كما تمتد الحدود الغربية إلى مقربة من غرب طريق القوافل غدامس، ثم تلي ذلك من الجهة الجنوبية الغربية جبال (تاسيلي) ، وجبال (تومو)، وفزّان هضبة صحراوية، وأرضها غير مستوية إلى حد ما، وتتدرج من الشمال نحو الجنوب لكي تتصاعد فجأة إلى أن تصل إلى جدار جبلي هو حدها الطبيعي.(1)

وتمثل فزان جملة من الواحات العامرة، يعمل سكانها في الزراعة، ألفوا الاقامة المستقرّة بفضل توافر المياه الغزيرة نسبيا والتي تسُدّ حاجة الزراعة، وهي من الجهات القليلة في الصحراء الكبرى التي تنتج حاجة سكانها من الحبوب. (2) ، ويُشكّل إقليم فزّان أكبر حيّز من الشطر الشّمالي للصحراء الكبرى، ويُمثّل حلقة الوصل بين جناحي الوطن العربي وبين شاطئ المتوسّط وبلاد السّودان، فالصحراء لم تكن حاجزا يمنعُ التواصل الاجتماعي، والتجاري، والثّقافي، ويمتاز سُكان إقليم فزّان بالكرم واحترام الغرباء، (3)

المبحث الأول ـ الحياةُ الدِّينية بفـــزّان، (الزّوايا والمساجد) :

أولا ـ الزّوايا :

الزاويةُ في اللُّغة : الزيُّ في اللُّغة مصدرُ زوى الشيءَ يَزويه زيًّا وزُويًّا فانزوى، نحَّاه فتنحّى. وزواه قبضه. وزويتُ الشيءَ: جمعتُه وقبضتُه. وانزوى القومُ بعضُهم إلى بعضٍ إذا تدانوا وتضامُّوا، والزّاويةُ واحدةُ الزّوايا، وزاويةُ البيت: رُكنُه، والجمعُ الزّوايا، وتزوَّى صار فيها، (4)

الزّاويةُ في الاصطلاح: أمّا الزاويةُ في الاصطلاح فإنه يُرادُ بها مأوى المتصوّفين، والفُقراء، والمسجدِ غيرِ الجامعِ ليس فيه مِنبرٌ، خصّصها بعضُ خُلفاءِ المسلمين الأوائل للذّكر والعبادةِ، والاعتكاف، والانقطاع للتأمّل، والتفكّر، والرياضة الرّوحية(5) وقد أُطلق لفظُ الزاوية قديما على موضعٍ بالبصرة كانت به الوقعةُ بين الحجّاج وعبدالرّحمن بن الأشعث، وعلى بلدٍ بالموصل، وقرية قُربَ المدينة بها قصرُ أنس، وبلد بواسط، وقرية بالأندلس، وبه سُميّت مدينةٌ من مُدنِ ليبيا، (6)

ومع تقادُم الزّمن تطوّر مفهوم الزاوية فأصبح يُطلق على تلك المؤسّسة الدِّينية التي تحتوي على غُرفٍ للصلاة، وغُرفٍ لتلاوة القرآن، ومكاتب لتحفيظ القرآن، وغُرفٍ مُخصّصة للضيوف وللحجّاج والمسافرين والطلبة، فهي على الجُملة مدرسةٌ دينيةٌ، ودارٌ مجّانيّةٌ للضيافة(7)

وقد كان دورُ الزّوايا في ليبيا عامةً وفي منطقة فزّان خاصّةً فعّالًا في دفعِ حركة المقاومة ضِدَّ الاحتلال الإيطالي، فإلى جانب كونها مراكزَ تعليميةٍ ودينيّةٍ، فقد كانت بمثابةِ الحُصونِ العسكريّة التي يأوي إليها المُجاهدون، حيث كانت تمُدُّ يد العون للأبطال المُرابطين في سبيل الله، وذلك بدعمهم ماديًّا ومعنويًّا، للتصدّي للعدوّ الغاشِم، فكانت ترفعُ من هِمم المُجاهدين، وتُصحِّحُ لهم مُعتقداتِهم، وتُقوّي لهم إيمانَهم، وتزرعُ في نُفُوسِهم رُوحَ المقاومةِ والدِّفاعِ عن الدِّين والشَّرفِ والوطنِ، وتُطهّرُ نُفوسَ المُنتسبين للمقاومةِ من التعلُّق بالحياةِ الدُّنيا الفانية، وتُرغِّبُهم فيما عند الله- عزّ وجلّ- وبذلك هبَّ الأبطالُ من أبناء الوطن دفاعًا عن أرضِهم، وردًّا للعدوّ الغاشِم.

والزوايا التي كانت قائمةً في فزّان إبّانَ الغزو الإيطالي على ليبيا كثيرةٌ، وفي هذا المبحث سوف نقتصرُ على ذكر بعضٍ منها، ودورها في تعزيز حركة المقاومة في المنطقة.

1. زاوية مـــرزق: وكان أوّلُ شيخ لها هو العلامة أحمد أبو القاسم التواتي.

2. زاوية واو: وكان أوّلُ شيخ لها هو العلامة أحمد أبو القاسم التواتي، ومن بين مَن تولّى مشيختها بالوكالة هو العلامة محمد بن الشّفيع، ثُمّ أسندت مشيختُها إلى محمد علي بن الأشهب، ثُمّ إلى ابنه نجم الدِّين.

3. زاوية زويلة : حيث كانت تحت إشراف العلامة أحمد أبو القاسم التّواتي [8].

4. زاوية الحضيري : وهي من الزوايا المشهورة في فزّان، وقد أسّس هذه الزاوية الشيخ محمد الملقّب بالحضيري ، ثم بعد ذلك توارثها الأبناء والأحفادُ[9].

5. زاوية هون: وكان أول مَن تولى مشيختها أحمد بن علي بن عبيد، ومن بين مَن تولى مشيختها مصطفى الهوني.

6. **زاوية سوكنة :** وكان أول مَن تولى مشيختها الشريف حامد بركات.

7. زاوية غات: وكان شيخها أحمد الغاتي.

هذه بعضُ الزوايا التي كانت قائمة في فزّان إبّان الغزو الإيطالي على ليبيا، وقد كانت هذه الزوايا مناراتُ علمٍ، حيث كانت تحتضنُ كثيراً من الطلاب يتعلمون فيها كتاب الله- عز وجل-، ويأخذون منها العلم الشّرعي، كما كانت تمُدّ يدَ العون للمجاهدين، حيث كان يُؤوي إليها المجاهدون، فهي بمثابة الحصون الدفاعية في ذلك الوقت، والتي كان لها دورٌ بارزٌ في تعزيز حركة المقاومة، وبثّ الروح الجهادية في نفوس الأبطال الذين تصدُّوا للغُزاة الطليان.

المبحث الثاني ــ الخطابُ الدِّيني ودوره في توجيه المجاهدين.

تعريف الخطاب الدِّيني :

الخطابُ في اللُّغة: الخطابُ لُغة التبيين، فهو تبيينٌ تحملُ ألفاظُه مضمونات يُرادُ إيصالُها إلى المُتلقي [10]، وقد عرّفه أهلُ اللُّغة بتعريفات مُختلفة، قال ابنُ منظور: "الخطابُ هو مُراجعةُ الكلام، يُقال: خاطبه بالكلام مُخاطبة وخطابًا، وهما يتخاطبان، والمُخاطبةُ مُفاعلةٌ من الخطاب" [11]، والخطاب كما في معجم الكليات هو: اللّفظُ المتواضَعُ عليه المقصودُ به إفهامُ مَن هو مُتهيءٌ لفهمه، فهو إما كلامٌ لفظيٌّ، أو كلامٌ نفسيٌّ مُوجّهٌ نحو الغير للإفهام، (12)

الخطابُ في الاصطلاح القرآني : تنوّع مفهومُ الخطاب في الاصطلاح القرآني، حيث ورد بصيغٍ مُختلفة في القرآن الكريم، فتارة يُطلق على الحوار الذي يكون بين طائفتين، ومن ذلك قولُ الله- تبارك وتعالى - **: ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُواْ سَلَامًا﴾، [الفرقان، 63]** ؛ أي : تكلّموا معهم، [13]، وتارة يطلق على مُراجعة الحديث بين شخصين، والغلبةُ فيه تكون لشخص على آخر ببسط الحُجّة عليه، ومن ذلك قولُه- سبحانه وتعالى -: ﴿ **إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾**، ؛ أي : صار أعزّ منّي في مُخاطبته إيّايَ؛ لأنه إن تكلّم فهو أبينُ مِنّي، وإن بطشَ كان أشدَّ مِنّي فقهرني[14]، وفي بعض الأحيان يُطلق الخِطابُ على الحوار الموجّهِ لحاضرٍ لدى المُتكلّم، أو الحاضرِ المتضمّنِ إخبارًا أو طلبًا أو إنشاءَ مدحٍ أو ذمٍّ، كما في قولِ الله- عزّ وجلّ-: ﴿**رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا**﴾، **[سورة النّبأ،37]** ؛ أي : لا يستطيعون خِطابًا يُبلّغُونه إلى اللهِ(15)

فالمُلاحَظُ من خلال السّياقاتِ المُختلفة لكلمة الخطاب الواردة في القرآن الكريم أنها تأتي دائما مقرونة بالعزّة، والشِدّة، والحكمةِ، والعظَمة، الأمرُ الذي يدُلُّك على المعنى السامي والرّفيع للخِطاب، إذ إنه لا يتمُّ على الوجهِ المطلوب إلاّ إذا صاحبتهُ حكمةٌ، أو عزّةٌ، أو قُوّةٌ، وقُصدَ به تِبيانُ الشيء، وإيصالُه إلى المُتلقي.

دورُ الخِطابِ الدِّيني في توجيه المُجاهدين : لا شكَّ أن الخِطابَ الدِّينيَّ له تأثيرٌ كبيرٌ في توجيه المُجاهدين وتحفيزهم، ورفعِ معنويّاتِهم، وذلك بما يذكرُه القرآن الكريمُ من الثواب الذي أعدّه اللهُ- جلّ وعلا- للمُجاهدين في سبيله من النَّعيم المُقيم، في جنّات النَّعيم، بشرطِ أن يكون هذا الجِهادُ مُباحًا شرعًا، إمّا أن يكون الجهادُ إعلاءً لكلمة اللهِ، وإمّا أن يكون دِفاعًا عن الأرضِ والعِرضِ، وردًّا للعُدوان، ودحضًا للمُشركين، وقد جاءت كثيرٌ من النُّصوص القرآنية التي تُبيّنُ فضلَ الجِهادَ، وثوابَه، منها قولُ الله-

تبارك وتعالى -: ﴿ **إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ فَاسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** ﴾، (التوبة، 113) ، وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- أن النبيَّ- صلى الله عليه وسلم- قال: "**تَكَفَّلَ اللَّهُ لِمَنْ جَاهَدَ فِي سَبِيلِهِ، لَا يُخْرِجُهُ إِلَّا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِهِ، وتَصْدِيقُ كَلِمَاتِهِ، بِأَنْ يُدْخِلَهُ الجَنَّةَ، أَوْ يُرْجِعَهُ إِلَى مَسْكَنِهِ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ مَعْ مَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ مَا مِنْ كَلْمٍ، يُكْلَمُ فِي سَبِيلِ، اللَّهِ إِلَّا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَهَيْئَتِهِ حِينَ كُلِمَ، لَوْنُهُ لَوْنُ دَمٍ، وَرِيحُهُ مِسْكٌ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْلَا أَنْ يَشُقَّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ مَا قَعَدْتُ خِلَافَ سَرِيَّةٍ تَغْزُو فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَبَدًا، وَلَكِنْ لَا أَجِدُ سَعَةً فَأَحْمِلَهُمْ، وَلَا يَجِدُونَ سَعَةً، وَيَشُقُّ عَلَيْهِمْ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنِّي، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوَدِدْتُ أَنِّي أَغْزُو فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَأُقْتَلُ، ثُمَّ أَغْزُو فَأُقْتَلُ، ثُمَّ أَغْزُو فَأُقْتَلُ**"، (البخاري، محمد بن إسماعيل،).

فالجهادُ رأسُ الفضائل، وأكثرُها مشقّةً واحتمالا؛ لأن التضحيةَ بالنّفس في سبيل العقيدةِ والوطن تحتلُ أعظمَ مراتبِ الفِدائيّةِ، وأصدق دليلٍ على الغيرةِ الوطنيّةِ، فالمجاهدُ الذي يُبرهنُ بالعمل على صدق الالتزام بمبدأ الجهاد يحقُّ له أن يُمجّدَ ويُعظَّم، فلولاهُ ما كانت الرسالةُ المُحمّديّةُ تُنتشرُ فتعُمّ الكونَ بأنوارها، وتُعجِزَ المُعاندين ببراهينِها وقوّة أفكارِها، وتُدحضَ المُكذِّبين بسلامة حجمها وتوالي أسرارِها، ولولا المُجاهدُ ما تحقّق للأمّة العربية حُكمُ ما بين الصين شرقًا وجبال البرانس غربا، ولا سلكت جموعُ الناشرين لمبادئ الإسلام في مجاهل الأرض دربًا، (16) ، وقد وعى المجاهدون الليبيّون الدروسَ المُستفادةَ من الدِّينِ الإسلاميّ، وتعمّقوا القيم العظيمةَ الكامنة فيه، فكان لهم من عقيدتِهم الرّاسخةِ، وإيمانِهم القويّ، ومن تجاربِ الماضي، وعِبَرِهِ وعظَاتِه، ذلك الزادُ الرُّوحيُّ الدّائمُ، والدّافعُ إلى الجِهادِ، كما كان لهمُ التكوينُ النّفسيُّ والوجدانيُّ، للجندي الصّادقِ في جِهاده الذي يفتدي بروحهِ ودمه المبادئَ السّاميةَ، والقيمَ النَّبيلةَ، ولذلك تجدَهم قد وقفوا موقفا مُشرّفا، وفريدا، ولمُدّةٍ طويلةٍ من الزّمن، ضِدَّ أعتى أنواع الاستعمار، حُمقًا وهمجيّةً وانحطاطا... حيثُ أدرك الغُزاةُ الطليانُ سِرَّ صُمودِ اللّيبيين ضِدَّهم، وعرفوا أن سببَ ذلك هو تمكُن العقيدةِ من نُفوسِهم، وأن الدِّينَ هو أمضى سِلاحٍ جُوبِهوا بهِ، لذلك استهدفت حربُهُم أوّلَ ما استهدفت رِجالَ الدِّين؛ لأنهم قادةُ الجِهادِ، فوجّهوا قذائفَ مدافِعهم نحو بيوتِ الله، كما فعلوا في طرابلس، والكُفرةِ، والجغبوب، ودرنة، فدمّروا كثيراً من المساجد

والزّوايا، وقتلوا عددا من رجال الدِّين، وقام السّفّاحُ (غراسياني) بجمعِ مشايخ الزوايا وأئمة المساجِد والفقهاء في برقة في مُعتقل بنينة ، ثُمّ أرسلهم إلى إيطاليا، وأعادهم مرّة أخرى لمعتقل بنينة، ثم طبّق عليهم سياسة الجوع والتعذيب وأحكامِ الإعدام، (17)

إن الناظرَ في تاريخِ الأمّةِ الإسلاميّة، وأسباب انتصاراتِها على مدى التاريخ، يتبيّنُ له دورُ العاملِ الدِّيني، وعظمةِ القُوّةِ الرُّوحيّة التي جعلت الموتَ هدفًا نبيلا، وغايةً كريمةً، ووجّهت الجُيوشَ إلى طريقِ النِّضال المُقدّس، والكِفاح المُشرّف، وهي التي جعلت المُجاهدَ اللّيبيَّ يُدافعُ بعزيمةٍ لا تُقهرُ، وقناةٍ لا تلينُ ولا تَضعفُ أمامَ ضروبِ العسف والنّكال التي طبّقها الغُزاةُ الطِّليانُ ضدَّ أبناءِ ليبيا طوال رُبع قرنٍ من الزّمن (18)

فالعاملُ الديني له أثرٌ واضحٌ، وتأثيرٌ بالغٌ في دفع المقاومة، وتثبيت المجاهدين، وذلك بما يُلقيه في نفوسهم من حُبّ لقاء الله- تبارك وتعالى- والرّغبة فيما عنده، وكذلك يُذكّر المجاهدين بعدم التولّي يوم الزحف عند لقاء العدو؛ لأن في التولي يوم الزّحف خزيٌ وندامةٌ، وعذابٌ من الله- تبارك وتعالى-، حيث أمر الله- جلّ وعلا- عباده بعدم التولّي يوم الزحف، فالخطابُ الديني يُوجّه المجاهدين إلى كُلّ هذه الأمور ويُذكّرهم بها، ليغرس في قلوبهم قُوةَ إيمانٍ، وزيادةَ صبرٍ، ورُوحَ قتالٍ، وبذلك يكون هو العاملُ الرئيسُ في حركة المقاومة والجهاد في سبيل الله.

وقد كان من أهمّ الأهداف العظيمة التي جاهد الليبيّون من أجلها الانتصارُ للعقيدة، فكان هذا الهدف وحده كفيلا بأن يجعلَ منهم شعبًا مُسلّحًا يُوجدُ الحُلولَ لمشاكله فوريا وبالإمكانيات المتاحة له حينذاك، وهذا الهدف هو الذي صنع القُوّةَ المعنويّةَ الفاعلة التي حقّقت نصرَ المسلمين في ظروف كانت أصعبَ بكثير من ظروفهم، وكان المسلمون الأوائلُ يهتمون كل الاهتمام بالمسائل الإدارية وعلى نهجهم سار المجاهدون الليبيون، إذ إن جميعَ أفعالهم وتصريفاتهم للأمور كانت تصدر عن إيمان عميق بتطبيق ما أمرت به العقيدة. (19)

المبحث الثالث ــ فاعلية الخطاب الديني - نماذج من الواقع في فزّان خلال فترة الاحتلال الايطالي - :

إن للمجاهد همّةً تزيل الظلمَ والحيفَ، وعزمًا أشدّ مضاءً من السّيف، إذ بصموده تمّ الظّفَرُ للمسلمين في أكثر من مكان، وبعزمه يقعُ النّصرُ في أيّ زمان، وذلك كله بسبب العقيدة التي أمدّت المجاهدَ بالقُوّة المعنويّة المتزايدة، فاكتسب الصفات الفدائيّة الرّائدة حتى أصبح للجماعة الإسلامية حصنا مكينا، وفي وجه الغُزاة سدًّا متينا، وإن

القِيمَ الرُّوحيّة تسمو بالرّابطة الاجتماعيّة بحيث تنتفي البغضاءُ والحسدُ ويتحدّد الهدفُ والقصدُ، ويسودُ التآلفُ والتكاتُف، ويُنبذُ التخالفُ، فيكونُ للفعل قُوّة التأثير؛ لأنه نبع من العقيدة وامتحن في مواقف الشدة (20) ، فالعقيدة لها تأثيرٌ واضحٌ في تآلف القلوب، واجتماع الكلمة، ووحدة الصّف، لا سيما عند الجهاد وقتال الأعداء، ولهذا قال اللهُ- تبارك وتعالى-: ﴿ **لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾، [سورة الأنفال ، 64]، وقد كان من ثمار تأثير الخطاب الدِّيني في نفوس المجاهدين في منطقة فزّان تصدّيهم للغزو الإيطالي بكُلّ ما عندهم من قُوّة وشجاعة وصبر، وكانت مواجهات العدو في فزّان يقودُها أبطالٌ، حيث تولّى قيادةَ معارك فزّان مع الإيطاليين محمد عابد السنوسي نائب أحمد الشّريف، بعد ما اتّخذ مركزه بزاوية (واو)، ثم تبع هذه الزاوية ثلاثةُ معسكرات يرأس أحدَها وكيل محمد عابد وكبير مستشاريه الشيخ : محمد الأشهب، ويرأس المعسكر الثالث بالجهات الغربية الشمالية من فزّان الشيخ السنّي، ويشرف على الإدارة العامة محمد علي الأشهب، وقامت معارك مع الإيطاليين في هذه المعسكرات في فزّان، حيث أحاطت القوات الليبية الإسلامية بالإيطاليين بمشاركة قُوات المجاهدين من قبائل التبو والطوارق، واستطاعت قوات المجاهدين أن تقضي على حامية (أدري) و(أباري) ، وتم فتح قلعة سبها، وسقطت مرزق ، ولجأ الإيطاليون إلى جنوب الجزائر، وطلبت حماية الفرنسيين، ثم تراجعت القوات الإيطالية....، وتخلوا عن غدامس وغريان، وأعلنت طرابلس حالة الطوارئ، وكان من أعيان فزّان الذين قادوا الجهادَ المقدّس ضدّ إيطاليا المجاهد الكبير محمد بن عبدالله البوسيفي، ونازل أهل فزّان القُوّات الإيطالية في ثلاث معارك مشهورة هي: معركة الشبب، ومعركة أشكدة، ومعركة المحروقة، واستشهد فيها محمد بن عبدالله البوسيفي - رحمة الله عليه - . (21)

ويكفي للتدليل على أثر العامل الديني في تشكيل شخصية المجاهد أن شعارَ الجهاد هو: الجنة تحت ظلال السيوف، كما يكفي للتدليل على اتّساع أثر مدرسة الجِهاد الليبية شمولها ونصرتها لقضايا الكفاح الإسلامي ضد أعداء الدِّين في مناطق كثيرة، وقد أسهم المجاهدون الليبيون عامة، وأبناء فزّان خاصة وعلى رأسهم **أحمد الشريف** في إذكاء روح الجهاد وإشعال جذوة الدّفاع عن العقيدة في أماكن عدة من البلاد. (22)

لقد سطّر المجاهدون من أبناء فزّان أروع الأمثلة في التصدّي للاحتلال الإيطالي على المنطقة، فكانوا يدا واحدة ضدّ الغزو الصليبي الغاشم، حيث تصدّى له المجاهدون بكل ما أوتوا من قوة، وساعدهم في هذا التصدي للعدو الغاشم ما وجدوه

من التحفيز المادي والمعنوي من قبل الحكماء والوجهاء وأصحاب الرأي السديد، عبر الزوايا والمساجد ومراكز التحفيظ، وحلقات العلم، فكان جهادهم جهاداً على قاعدة سليمة وهدف واحد هو إعلاء كلمة الله- جل وعلا- أولا، ثم الدِّفاع عن العرض والأرض ثانيا، واستمروا على ذلك حتى تحقّق لهم الهدف المنشود وهو تطهير البلاد من براثن الظلم والطغيان والفساد، وإجبار الغُزاة على الخروج من البلاد صاغرين ذليلين، وكان هذا الانتصار الكبير من فضل الله- تعالى- على عباده، بعدما تمسّكوا بالكتاب والعقيدة الصادقة والرّغبة فيما عند الله- تعالى- والدّار الآخرة.

الخاتمـــة :

كانت أطماعُ الإيطاليين السيطرةَ على كامل ليبيا شرقا وغربًا وشمالاً وجنوبًا، فبعدما بسطت سيطرتها على أغلب التراب الليبي اتّجهت نحو الجنوب الليبي المتمثّل في إقليم فزّان في محاولة منها للسيطرة على ما تبقى من البلاد، ولكن بفضل الله- عزّ وجلّ- ثُم بفضل أبناء الوطن من المجاهدين في فزّان وفي غيرها من المدن الليبية تمكّن المجاهدون من صدّ العدوان الغاشم، وفي الختام أريد أن أكد على مسألة مهمة وهي أن الدراسات التي تناولت حركة الجهاد في ليبيا ضد المستعمر الايطالي قد لا تحصى، منها المكتوبة، والمرئية، والمسموعة، ورغم ذلك أعتقد أنها لم تتطرق إلى المحور الأساسي في توجيه المجاهدين- الخطاب الديني- بمفهومه الخاص، في ليبيا لا سيما في فزان والتي شكلت الزوايا والكتاتيب الدور الرئيسي في الدفع بحركة المقاومة في فزان، وهذا بعد اطلاع على جملة من المصادر الموجودة في مركز جهاد الليبيين في طرابلس سواء مكتوبة أو الروايات الشفهية الموجودة في مكتبة المركز، إلا ضمني استخلصتها من خلال الأبحاث والدراسات المكتوبة، وبعد هذه الدراسة في تاريخ حركة المقاومة الجهادية في فزّان ضد الاستعمار الإيطالي، وما كان من دور للخطاب الديني في هذه المقاومة يمكن استخلاص النتائج التالية:

1- كان للزوايا دورٌ كبيرٌ في تثبيت المجاهدين ورفع هممهم، للتصدِّي للعدوّ الغاشم، وذلك بترغيبهم فيما عند الله من الثواب العظيم، الأمر الذي زاد من قُوّتهم وحماسهم للجهاد.

2-إلى جانب كون الزوايا مراكزَ تعليميةٍ ودينيّةٍ ، فقد كانت بمثابةِ الحُصونِ العسكريّة التي يأوي إليها المُجاهدون.

3 ـ تمثّل الخطابُ الديني فترة الاحتلال الإيطالي في الخطب والدروس التوعويّة التي يلقيها الوعّاظ وأئمة المساجد والتي كان من شأنها زيادة دفع المقاومة وبثّ روح الجهاد ضدّ المستعمر.

4 ـ قاوم الأجداد في منطقة فزّان الاحتلالَ الإيطالي وكانت لهم معه معارك طاحنة معروفة إلى يومنا هذا ظفر فيها الليبيون على الغُزاة، وخلّدت ذكراهم.

5 ـ لم يستسلم الأجداد يوما للمستعمر مع قلّة عِدّتهم وعتادِهم، بل تصدّوا للعدوّ الغاشم فترة من الزمن، إلى أن نالت ليبيا استقلالها وحريتها.

6ـ كان للقيم الدينية والأخلاق النصيبُ الأكبرُ في شحذ همم المجاهدين، ولم تغلب عليهم النعرات الطائفية، أو التوجّهات القبلية، بل كانوا يدًا واحدة، تجمعهم رابطة الدِّين والأخوة.

7 ـ الجهادُ رأسُ الفضائل، وأكثرُها مشقّةً واحتمالا؛ لأن التضحيةَ بالنّفس في سبيل العقيدةِ والوطن تحتلُ أعظمَ مراتبِ الفِدائيّةِ.

8 ـ قدّم المجاهدون من أبناء فزّان من مختلف القبائل والعشائر العديد من الشُّهداء فداءً للوطن، حيث كان لأغلب القبائل الفزّانيـــة النصيبُ الأوفرُ في الجهاد ضدّ الطليان.

9 ـ كان من أولى الأولويات التي جاهد من أجلها الليبيون في فزّان وفي غيرها من مناطق ليبيا إعلاء كلمة الله- تبارك وتعالى- ثم الدّفاع عن العرض والأرض، وهذا الذي ينبغي أن يكون في الجهاد حتى يكون الجهادُ لله وفي الله.

10 ــ أن الدراسات والمؤتمرات في فزان، والتي تناولت حركة جهاد الليبيين ضد المستعمر الايطالي أولتّ الجانب التاريخي في تتبع خطواتها- المنهج الاسترادادي التاريخي- في جلّ الدراسات ولم تتناول جانب الخطاب الديني في فزان.

التوصيات :

مما أوصي به هو التأكيدُ على أهمية الخطاب الديني الهادف وتناوله بالندوات وورش العمل بالجامعات والمعاهد الدينية وإفراد له مؤتمر دولي يبين أهمية دور الخطاب الديني في الدفع بالمقاومة ضد المستعمرين، كذلك الموضوعات التي تتحدّث عن كفاح الليبيين ونضالهم أجدر بالبحث والدراسة، لأنها تبحث في تاريخ الأجداد المشرِّف الذين قدّموا دماءَهم الزكية من أجل إعلاء كلمة الله وحده لا شريك له، ثم لينعم هذا الوطن بالحرية والأمن والاستقلال، فرحم اللهُ شُهداءَ هذا الوطن، وجزاهم الله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.

وفي الختام الحمد الله على توفيقه وإن كانت غير ذلك فحسبي أنـي اجتهدت، سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد الله رب العالمين.

الهوامـــــــــــش :

القـــرآن الكريم.
1- جراتزياني، رودو لفـــو، نحو فزّان، نقله عن الإيطالية : طه فوزي، مكتبة صايغ، القاهرة، 1976م. ص: 443، 444.
2- جمال الدين الدناصوري ، جغرافية فزان ، منشورات كلية الآداب، الجامعة الليبية ، دار ليبيا للنشر والتوزيع، بنغازي.، ب، ت، ص: 35، 36
3- عبدالصمد عبدالقادر عبدالصمد ، رحلات الحج عبر فزّان والطرق التي سلكتها بين القرن السادس والحادي عشر الهجريين (12- 17م)، مجلة جامعة سبها، (العلوم الإنسانية) المجلد الثالث عشر، العدد الأول، 2014م، ص: 68.
4- ابن منظور، محمد بن مكرم، مادة: زوى
5- العقبي، صلا مؤيّد، 2002م، الطرق الصوفية والزّوايا بالجزائر، تاريخُها ونشأتُها، دار البُراق، لبنان، بيروت. ص: 300، 301
6- المرجع السابق، ص: 301.
7- أبوبكر، 5240/17
8- الصلابي ، علي بن محمد، تاريخ الحركة السنوسية في أفريقيا، دار المعرفة، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، 2009م.، ص: 91، 92
9- الحضيري، إبراهيم أحمد، زاوية الحضيري دورها وتأثيرها العلمي والاجتماعي في فزان، مجلة أصول الدين، المجلد السابع، العدد الأول، يونيو 2023م.
10- مجمع اللّغة العربية، 2004م، 250
11- ابن منظور، مصدر سابق، مادة: خطب
12- الكفوي ، أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني، الكليات، معجم في المصطلحات والفروق اللّغوية، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، 1998م.419.
13- مجمع اللّغة العربية، 1989م ، 383/1
14- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق: عبدالله بن عبدالمحسن التركي، مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعـلان، القاهرة، الطبعة الأولى، 2001م.59/20
15- ابن عاشور، محمد الطاهر، تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984م.، 50/30

16- الهاين، مصطفى سعد، 1970م، أثر العامل الدِّيني في الجهاد اللّيبي، مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي، الطبعة الأولى، طرابلس، ليبيا.، ص: 4.
17 - الهاين، مصدر سابق، ص: 16، 17.
18- مصدر سابق، ص: 18).
19- الهاين، مصطفى سعد، مصدر سابق، 78.
20- الهاين، مصدر سابق، ص: 4
21- الصلابي، علي بن محمد، 319/1).
22- الهاين، مصطفى سعد، مصدر سابق، 29

وغيرها من المصـــادر والمراجــع التي استعان بها الباحث:

ـ البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، دار ابن كثير، دمشق، سوريا، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 2002م.
ـ معجم ألفاظ القرآن الكريم، مجمع اللغة العربية، جمهورية مصر العربية، 1989م.
ـ النيسابوري، أبو الحسين مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى، 2006م.